هنا يجيء الجواب سؤالاً بسؤال، فيقال: وهل هما اثنان؟ الأمر هنا أشبه بأن يقال: نصف الإناء فارغ! ثم يقال: نصف الإناء ملآن! عبارتان مختلفتان ... صحيحتان; لأنّ الإناء واحد، ولأنّ حجم الامتلاء فيه مساو لنفس حجم الفراغ! إنّما التباين من وضع إلى آخر، فإنّه في اختلاف الميل بين زاويتي الرؤية. فليس محمد إلاّ َ الرسول الذي شاء ربّك أن يكون ـ والرسالة القدسية وديعة في يمينه ـ من بني الإنسان، وليس الرسول غير الإنسان الذي شاء ربّك أن يكون ـ وهو في إطاره البشري ـ محمداً خاتم المرسلين. وكما أنّه محال انسلاخه من بشريته ـ بطوعه أو بقهر من قوة مخلوقة جبرية ـ فمحال أيضاً انسلاخه من رسالته الربّانية. فالرسالة ليست ثوباً ينضوه بنفسه عن نفسه، أو ينضوه عنه سواه، ذلك لأنّها تكليف من ا، وما هو من ا مشيئة جرت عليه بقضاء ا فلا خيار له فيه، ومشيئته سبحانه لا تحدّها من حساب أعمار الخلائق حدود. إنّها قديمة قدم الأزل، موغلة في الغد إلى أبد الأبد. دلالة هذا أنّ الذين سبقوه بالحقب والأدهر[1427]، من الرسل والأنبياء، قد بشّروا به قبل أن يظهر في الناس، وما بشّروا إلاّ َ وقد أماط[1428] لهم ربّ العالمين أستار غيبه الخبيء المكنون، فرأوا خاتمهم، إن لم يكن بلحظ العين فبحسّ الوجدان، وشفيف الروح، أو بالوحي الأقدس الذي يتنزّل في الروع. يقول تعالى على لسان السيد المسيح: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرَاً بِرَسُول يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)[1429].